ذاكرة العرب

مجلة ربع سنوية - العدد الثالث - أكتوبر ٢٠١٩

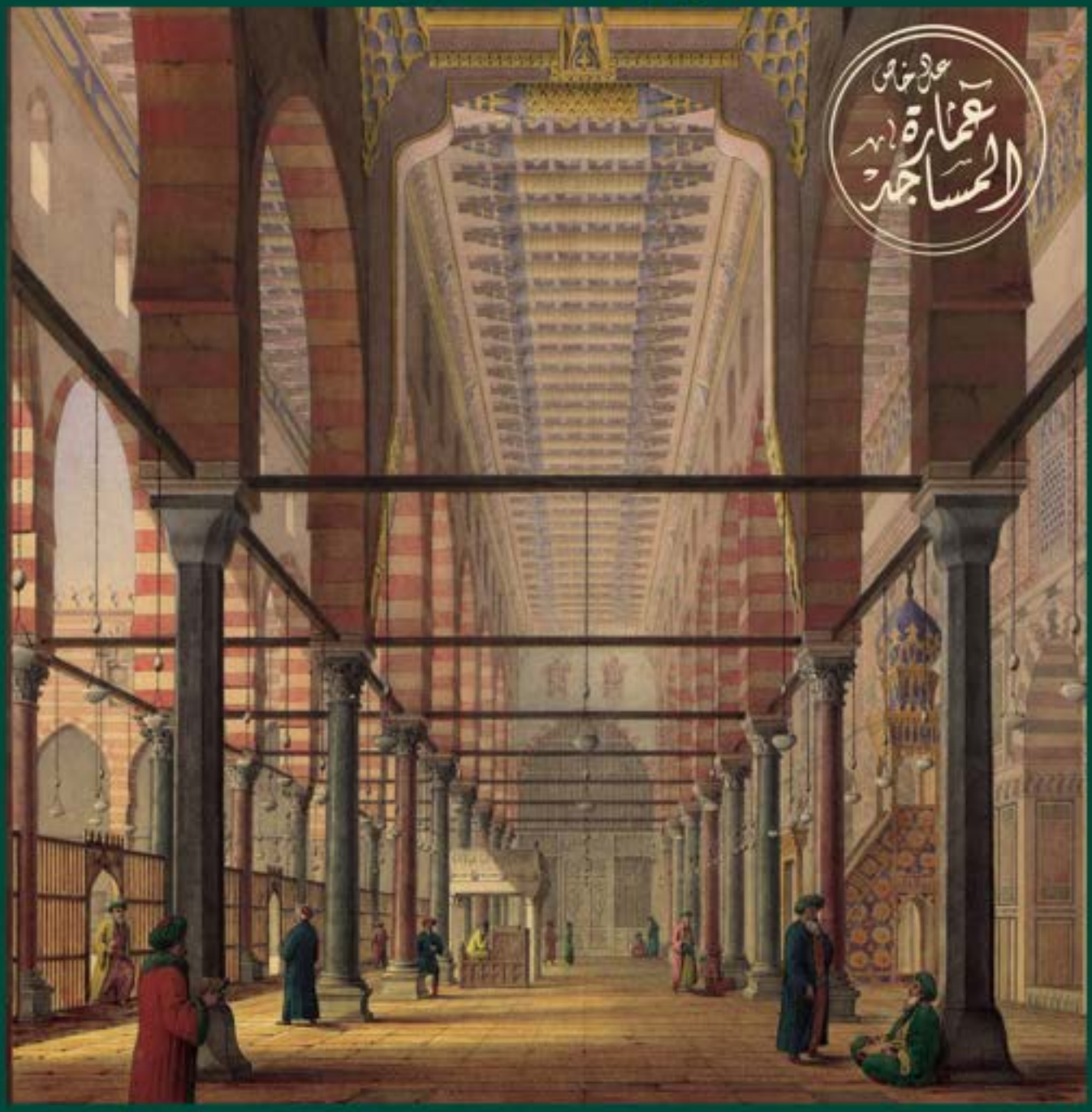

عدد خاص عن عمارة المساجد

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

من إصدارات مكتبة الإسكندرية

نفائس المخطوطات بمكتبة الإسكندرية

للحصول على مطبوعات مكتبة الإسكندرية؛ يُرجى الاتصال بمنفذ البيع:
تليفون: ٤٨٣٩٩٩٩ (٢٠٣)+ داخلي: ١٥٦٠–١٥٦٢
فاكس: ٤٨٢٠٤٧٦ (٢٠٣)+
البريد الإلكتروني: sales@bibalex.org

الفهرس

المساجد الجامعة وتطورها	٢
الجامع الأموي الكبير في مدينة دمشق	١٨
العمارة الدينية بمدينة سامراء	٤٤
الجامع الكبير بصنعاء	٥٤
هوامش وملاحظات حول المسجد الجامع بالقيروان	٦٢
مساجد مدينة فاس	٨٢
مساجد الموصل التاريخية	١٠٨
الآثار الإسلامية في الإسكندرية (المساجد العثمانية)	١١٦
المساجد التاريخية في المملكة العربية السعودية	١٢٤
مساجد موريتانيا	١٣٤
عمارة المساجد والمدارس في موسوعة «المزارات الإسلامية والآثار العربية في مصر والقاهرة المعزية»	١٧٤

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

الإشراف العام

أ . د . مُصْطَفى الفِقي

مدير مكتبة الإسكندرية

الهيئة الاستشارية

أ . د . أَيْمَن فُؤاد سَيّد

أ . د . أَشْرَف فَرّاج

د . مُحَمَّد الجَمَل

سكرتير التحرير

سُوزَان عَابِد

المراجعة والتصحيح اللغوي

فاطِمَة نَبيه

مُحَمَّد حَسَن

التصميم الجرافيكي والخطوط

الحَسَن عِصَام

خَالِد مُصْطَفى

الإسكندرية، أكتوبر ٢٠١٩

طُبعت برعاية

OFID
THE OPEC FUND FOR INTERNATIONAL DEVELOPMENT
Uniting against Poverty

الجامع الأموي الكبير في مدينة دمشق

بقلم: الدكتور غزوان ياغي

تتفق كل الدراسات على أن أرض الجامع الأموي الواقع في مدينة دمشق القديمة هي أرض مقدسة، أوقفت للعبادة منذ ألوف السنين، حيث كان معبد الإله حدد الآرامي أول مبنًى ديني أقيم عليها في مطلع الألف الأول قبل الميلاد، ثم شيد الرومان بعد سيطرتهم على دمشق سنة ٦٤ ق.م معبدًا للإله جوبيتر على أنقاض المعبد الآرامي القديم. ويبدو من آثار هذا المعبد الباقية في دمشق إلى الآن أنه كان يحتل مساحة واسعة، وكان له سور خارجي تبلغ أطواله ٣٨٠ × ٣٠٠ م، يوجد بداخله العديد من المباني، كما كان يطلق عليه اسم «معبد جوبيتر الدمشقي».

وقد أثبتت الدراسات الأثرية العديدة التي قام بها العالمان كريزويل البريطاني ودوسو الفرنسي، والباحثان فاتسنجر وفولتسنجر الألمانيان، والعالم الآثاري السويسري فان برشم، أنه كان يتوسط المعبد الكبير مبنًى كبير كان يطلق عليه اسم التيمينوس Temenos، الذي كان تتوسطه أيضًا ساحة داخلية كبيرة تمتد باتجاه شرق غرب، أبعادها ١٥٥ × ١٠٠م. وفي الحقيقة، فإن موقع هذا التيمينوس يتطابق مع موقع ومساحة الجامع الأموي، وقد كان يحيط بالساحة الداخلية للتيمينوس سور ضخم مبني بحجارة كبيرة. ويشغل كلاً من الزوايا الأربعة لهذه الساحة برج مربع يرتفع فوق السور، ويحتوي على درج يصل بين طوابقه المتعددة، كما كان يزين واجهات جدران وأبراج السور الخارجي للتيمينوس دعامات جدارية يعلوها تاج مقعر الأوجه، وكان ارتفاع الجدارين الشرقي والغربي للسور يزيد على الجدارين الشمالي والجنوبي. وكان يحيط بساحة التيمينوس هذه رواق معمد يمتد مع امتداد السور الداخلي من جهاته الأربعة، كما كان يفتح على هذه الساحة أربعة أبواب تقع بالاتجاهات الرئيسية.

كان يتوصل من الباب الشرقي منها إلى شارع الأعمدة الذي يعرف موقعه اليوم بشارع النوفرة، والذي كان يتوصل منه سابقًا إلى الأغورا؛ أما الباب الغربي، فكان يؤدي إلى الأسواق وغيرها من المرافق التي كانت تقع في الجانب الغربي للمدينة، والتي تحتلها اليوم مباني سوق الحميدية والأسواق الأخرى المحيطة به. ومن الباب الجنوبي للتيمينوس كان يتوصل إلى معبد حوريات الماء الذي ما تزال آثاره باقية في مكانها بعد أن كشفت عنها الحفريات الأثرية المتعددة التي نفذت في المكان المتوصل إليه اليوم من مدخل بشارع سوق السلاح الممتد خارج الواجهة الجنوبية للجامع الحالي. وقد كان يتوسط الجهة الغربية من ساحة التيمينوس مبنًى هام، كان يطلق عليه اسم «الهيكل» أو «بيت الآلهة» أو «السيلا».

صورة جوية للمدينة القديمة تظهر موقع الجامع الأموي حاليًا.

كنيسة يوحنا المعمدان

تشير الدلائل التاريخية إلى أنه بعد أن أصبحت الديانة المسيحية ديانة رسمية للدولة البيزنطية بعد صدور مرسوم ثيودوسيوس الأول سنة ٣٩٢م، صارت المساحة الواقعة بين الجدران الخارجية لساحة التيمينوس والجدران الداخلية لمعبد جوبيتر الدمشقي الروماني الكبير بعد فقدان خصوصيتها الدينية الوثنية، أرضًا مشاعًا، ومكانًا بنيت عليه العديد من المرافق العامة والأسواق والقصور.

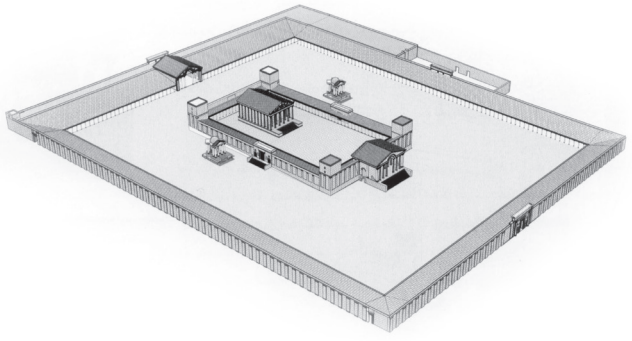

منظور تصوري لمعبد جوبيتر الدمشقي في العصر الروماني.

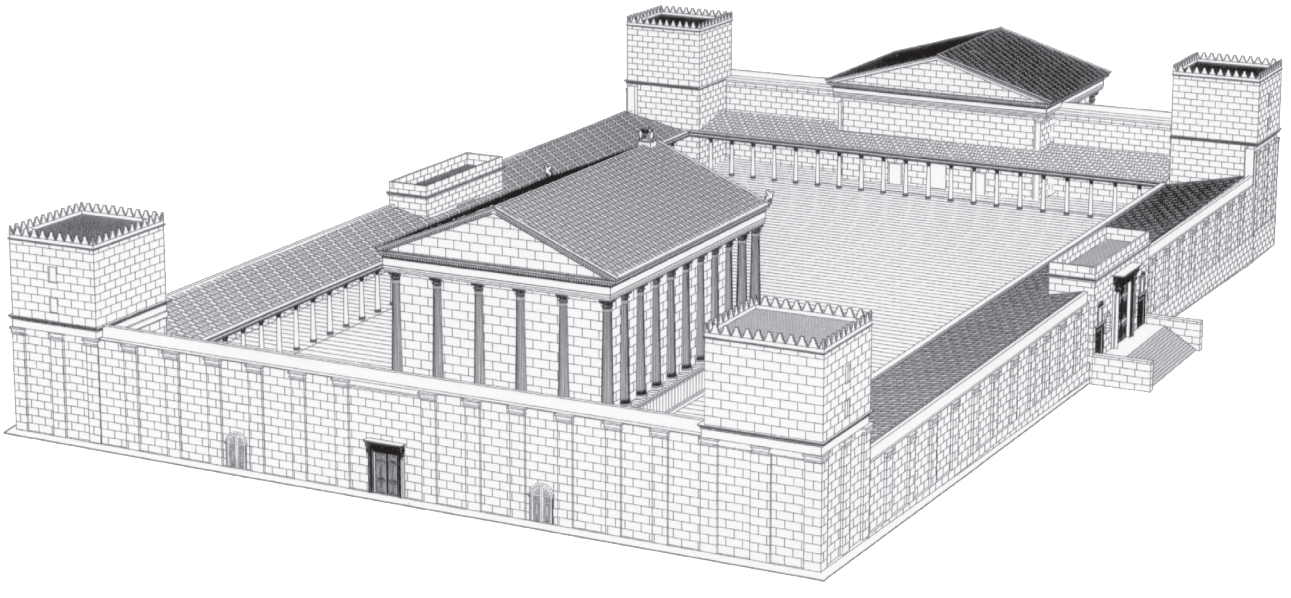

رسم تصوري لمبنى التيمينوس الذي كان يتوسط معبد جوبيتر الدمشقي (منظور من الجهة الجنوبية الغربية).

كذلك تؤكد المصادر أن الإمبراطور ثيودوسيوس الأول (٣٤٧-٣٩٥م) قد أمر ببناء كنيسة على اسم القديس يوحنا المعمدان على أجزاء من المعبد القديم. ويؤكد العالم كريزويل باستخدام الأدلة المعمارية والدراسة المقارنة أن هذه الكنيسة بنيت على جزء من الجانب الغربي من ساحة التيمينوس؛ أي على نفس مبنى الهيكل (بيت الآلهة أو السيلا) أو إلى الغرب منه. ومن المرجح أن تكون هذه الكنيسة قد شهدت ترميمات وتغييرات وتوسعات عديدة جهة الغرب والشمال عبر القرون الثلاثة اللاحقة قبل أن تصل إلى شكلها الذي كانت عليه زمن حكم الخليفة الوليد بن عبد الملك (٧٠٥-٧١٥م/ ٨٦-٩٦هـ).

ورغم الخلافات بين الآثاريين بسبب قلة المعلومات التاريخية حول شكل ومساحة وامتداد الكنيسة وتوسعاتها، فإنهم يجمعون تقريبًا على أن مكان هذه الكنيسة ومبانيها ظل محصورًا في الجزء الغربي من ساحة هيكل المعبد القديم.

ومن الواضح أنه عند بناء هذه الكنيسة هدمت أجزاء خارجية عديدة من معبد جوبيتر الكبير، الواقعة خارج التيمينوس، واستخدمت حجارتها في بناء الكنيسة وتوسعاتها والمباني التي ألحقت بها. ولم يبقَ من جدران ساحة التيمينوس سوى جدرانها الخارجية، كما أضيفت مجموعة من الأروقة الخارجية التي حددت من خلالها مداخل الكنيسة، التي ما زال بعضها قائمًا حتى يومنا هذا، بالإضافة إلى مجموعة من الجدران والأعمدة العائدة إلى الأسواق المحيطة بالمعبد.

فتح دمشق وتأسيس المسجد الأول فيها

لم تأتِ المراجع العربية على أي ذكر لشكل ومكان كنيسة يوحنا المعمدان؛ وإنما ورد ذكرها على أنها كانت في مكان ما ضمن جدران ما كان يعرف بالمعبد الوثني أو التيمينوس؛ حيث بقيت إلى أن فتح المسلمون دمشق من الحكم البيزنطي سنة ١٤هـ/ ٦٣٥م. فقد اقتسم الفاتحون ساحة التيمينوس مع المسيحيين، وليس الكنيسة التي كانت تقع في الجزء الغربي من هذه الساحة كما أثبتنا؛ حيث ترك المسلمون النصف الغربي من هذه الساحة الذي كانت عليه الكنيسة، وجعلوا النصف الشرقي الذي كان قد فتح حربًا مع النصف الشرقي للمدينة على يد خالد بن الوليد (حسب ما أبرم في اتفاق الصلح مع أهل المدينة)، مسجدًا لصلاتهم، سمّوه «مسجد الصحابة»، وظل هذا الحال منذ الفتح إلى خلافة الوليد بن عبد الملك؛ أي قرابة سبعين عامًا.

وتبين النصوص التاريخية التي أوردها المؤرخون العرب مثل ابن شاكر وغيره، أن المسلمين والمسيحيين آنذاك كانوا يدخلون من بوابة المعبد الجنوبية وكانوا يتفرعون، فيذهب المسيحيون نحو

الغرب إلى كنيستهم، في حين يلتف المسلمون نحو الشرق إلى جامعهم. وأغلب الظن أن السيرة المعمارية لهذا الجامع القديم تشبه سيرة الكنيسة قبله؛ أي قد مرّ منذ إقامته إلى إزالته بعدة مراحل، توسع فيها باتجاه الشرق والشمال بما يتناسب مع الأعداد المتزايدة من العرب المسلمين الذين أتوا للسكنى في مدينة دمشق أو العرب المسيحيين من سكان دمشق الذين تحولوا إلى الإسلام آنذاك. فقد اكتفوا في البداية باستعمال جزء من الرواق الداخلي الجنوبي لساحة الهيكل القديم، ثم أضافوا إليه تدريجيًّا عددًا من الأروقة وفق حاجاتهم. وأغلب الظن أيضًا أنهم استعملوا بقايا برج المعبد الجنوبي الشرقي لينادوا منه للصلاة، تمامًا كما استعمل النصارى قبلًا البرج الجنوبي الغربي لناقوس كنيستهم.

جامع الوليد

بعد قيام الدولة الأموية سنة ٤١هـ/ ٦٦١م واتساع حدودها وتألق عاصمتها، كانت هناك حاجة ملحة إلى إقامة جامع كبير يليق بعظمة الدولة، ويلائم حالة التطور الواسعة، التي بلغها المجتمع العربي الإسلامي. فلقد غدت دمشق في عهد الوليد عاصمة لأعظم دولة عربية في التاريخ، وزاد عدد السكان في دمشق، كما زاد عدد المسلمين فيها، وضاق بهم المسجد الأول، ولم يعد يتسع للأعداد الكبيرة من المسلمين. عندها قرر الوليد تنفيذ مشروعه المعماري الهام؛ ففاوض المسيحيين على أن يتخلوا عن النصف الغربي لساحة التيمينوس القديم، التي كانوا قد بنوا ووسعوا عليها كنيستهم، لا نصف الكنيسة – كما روج بعض

المستشرقين – وصالحهم عليها، واستبدلها برد كنائس عديدة كانت لهم في الغوطة الشرقية التي فتحت حربًا «دار حرب»، فقبلوا، ولم يعترض على ذلك الاتفاق أي سلطة دينية أو مدنية، ولا رجل دين أو مؤرخ، لا من المعاصرين أو من التابعين. ولولا هذا الاتفاق المنصف، لقامت السلطة المسيحية البابوية بالاعتراض رسميًّا، ولاعترض رجال الدين المسلمون عليه، واعتبروا المسجد قد بني غصبًا بما يخالف أوامر دينهم الحنيف، فلم يرد في المصادر المسيحية ولا الإسلامية أي اعتراض يذكر.

ويبدو أن الوليد هدم كل ما كان قائمًا داخل جدران الهيكل القديم التيمينوس بما فيه الكنيسة والمسجد القديم، وشيَّد جامعه الجديد وفق مخطط جديد مبتكر يتجاوب مع شعائر الدين الإسلامي وأغراض الحياة العامة؛ فجاء فريدًا بهندسته لم يُبنَ على نسقه أي بناء آخر، ووضَعَ به مبادئ إنشاء الجوامع الكبرى التي شيدت بعده في العالم الإسلامي. وظل المعماريون عدة قرون يستوحون منه وينسجون على منواله. ولم يضَنَّ الوليد بالجهد والمال لكي يكون هذا الجامع آية في الفن المعماري وتحفة من التحف الفنية. فقد كان جامع دمشق ثورة على البساطة والتقشف، وانطلاقة جديدة في مضمار فن العمارة والزخرفة. ويبين إصرار الوليد على أن يبني جامعًا مميزًا قوله حين خطب: «يا أهل دمشق، إني رأيتكم تفخرون على الناس بأربع: بمائكم وهوائكم وفاكهتكم وحماماتكم، فأحببت أن يكون مسجدكم الخامس»؛ وهذا كان فعلًا. وقضى الوليد في بنائه قرابة عشرة أعوام.

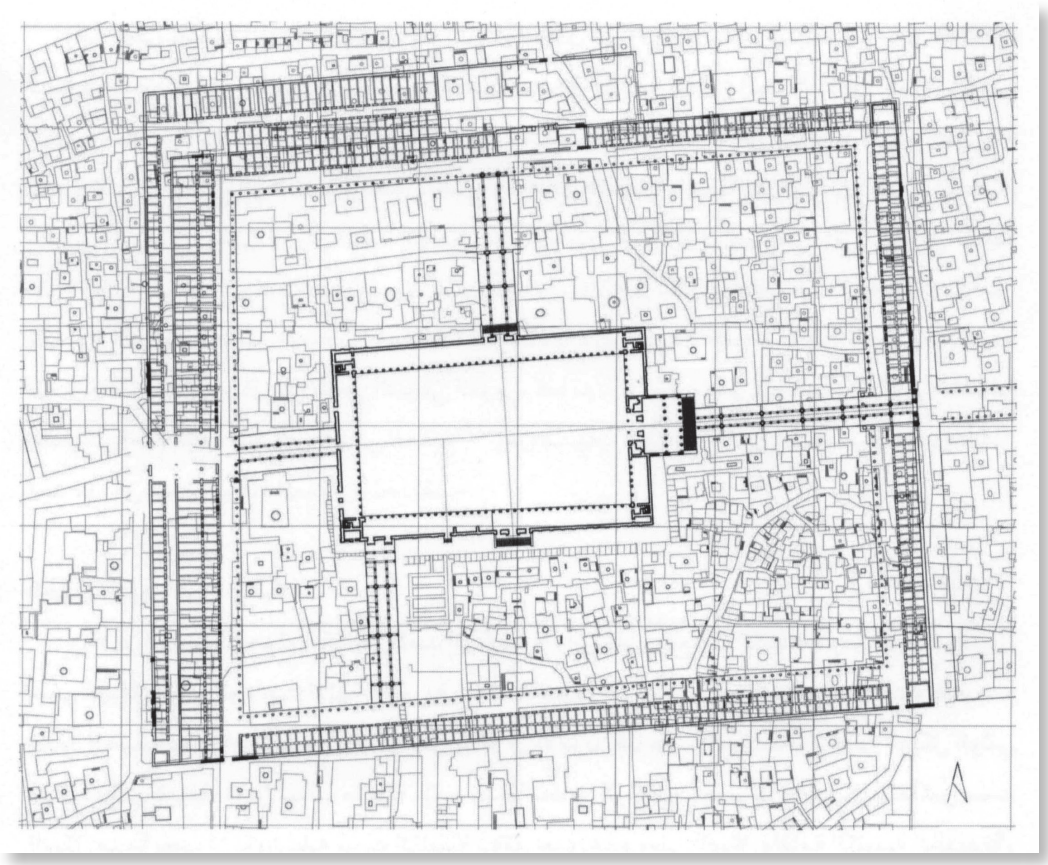

رسم تصوري لمساحة معبد جوبيتر الكبير، وموقع التيمينوس في الوسط، والأروقة التي أقيمت بعد القرن الرابع الميلادي.

اتخذ الوليد قراره ببناء الجامع في الموقع الذي فرضته المعايير العمرانية، وهو موقع التيمينوس الوثني القديم. ويبدو أنه وضع لذلك مخططًا نفذ على عدة مراحل؛ بادر في المرحلة الأولى إلى هدم كل ما كان داخل البناء الوثني بساحة التيمينوس، ولم يبقِ سوى على الجدران الخارجية، وبقايا أبراج الزوايا الأربعة، والبوابتين الشرقية والغربية مع الطريق الواصلة بينهما، والتي هي امتداد للطريق التي أحدثت في العهد البيزنطي، وازدادت أهميتها في العهد العربي الإسلامي. ويروي ابن كثير هذا الحديث بكل تفصيل يزيل كل غموض أو شك، حين أورد قول أحدهم: «ثم أمر الوليد بإحضار آلات الهدم واجتمع إليه الأمراء والكبراء، وجاء إليه أساقفة النصارى وقساوستهم، فقالوا: يا أمير المؤمنين، إنا نجد في كتبنا أن من يهدم هذه الكنيسة يجن، فقال الوليد: أنا أحب أن أجن في الله، والله لا يهدم أحد فيها شيئًا قبلي، ثم أخذ فأسًا بيده فأهوى بها أعلى حجر فألقاه... وكبر المسلمون ثلاث تكبيرات... فهدم الوليد والأمراء جميع ما جدده النصارى في ترميم المعبد من المذابح والأبنية والحنايا، حتى بقي المكان صرحة مربعة، ثم شرع في بنائه بفكرة جيدة على هذه الصفة الحسنة الأنيقة التي لم يشتهر مثلها قبلها...».

وقد حفظ لنا الأدب العربي قصيدة للشاعر الأموي النابغة الشيباني يمدح فيها الخليفة الوليد، ويظهر فيها أنه هدم الكنيسة والمسجد القديم اللذين كانا متلاصقين، وبنى الجامع مكانهما، منها:

قلعت بيعتَهم عن جَـوفِ مسجِدنـا
فصخرُها عن جديدِ الأرضِ منسوفُ
كانتْ إذا قامَ أهلُ الدينِ فابتهلوا
باتتْ تُـجاوِبنا فيهـا الأســاقــيفُ

وقد أمر الوليد أن يكتب بالذهب على اللازورد في حائط المسجد الأموي نص يؤرخ ذلك، رآه المؤرخ المسعودي سنة ٣٣٢هـ/ ٩٤٤م، جاء فيه: «ربنا الله، لا نعبد إلا الله، أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبد الله أمير المؤمنين الوليد في ذي الحجة سنة سبع وثمانين». فالنصوص الواردة أعلاه تذكر صراحة لا لبس فيها أن الكنيسة هدمت، وأن الوليد بنى الجامع من جديد؛ وهذا ينفي آراء بعض المستشرقين الذين يدعون أن الوليد حول الكنيسة إلى مسجد.

يقول في ذلك سليم عادل عبد الحق: ونحن لا نقبل نظريات ولزنجر وواتزنجر وديسو ولامانس ومن لف لفهم، من أن الوليد لم

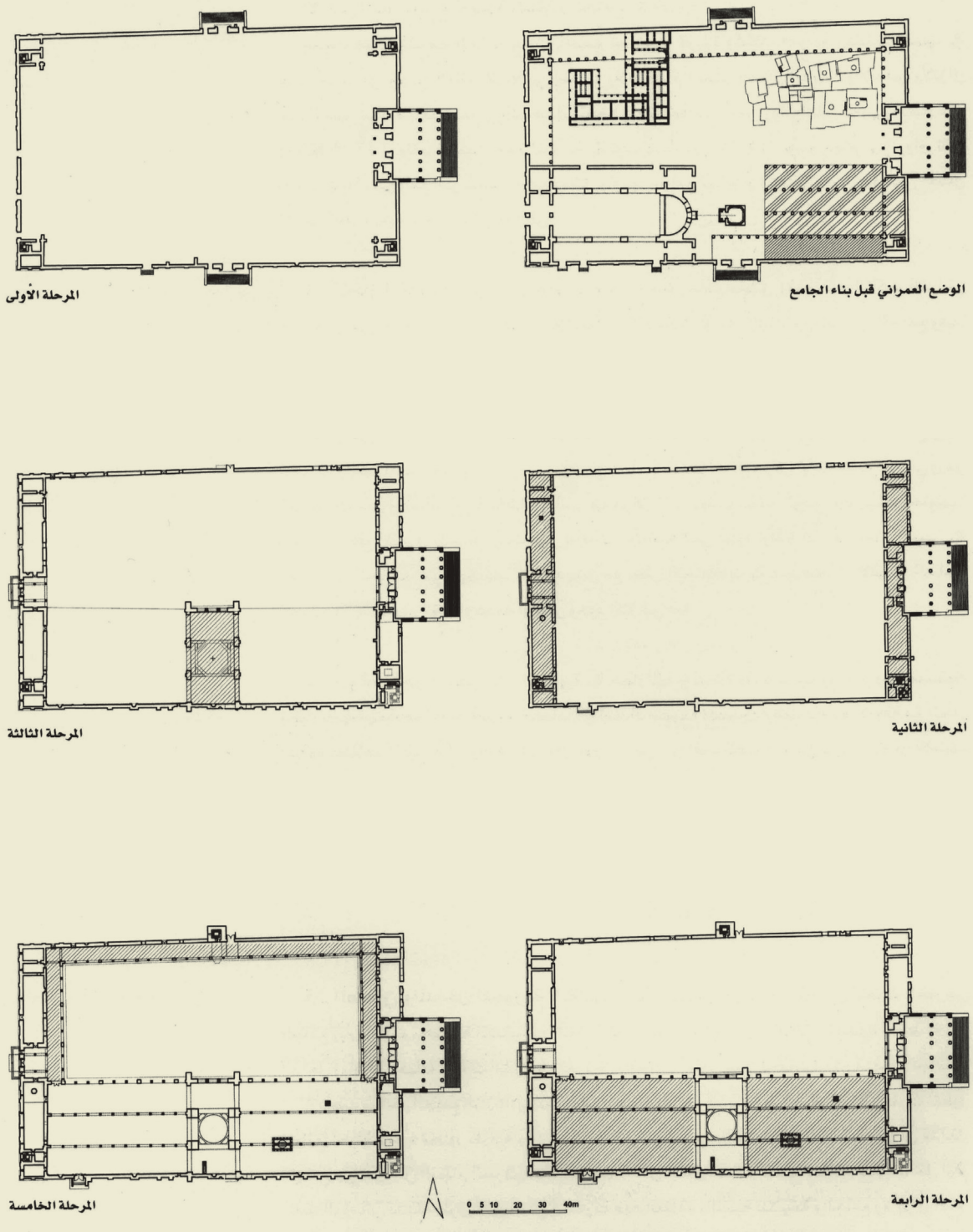

مراحل بناء الجامع الأموي بدمشق كما اتفق عليها الدارسون.

يبنِ من المسجد غير القبة والمئذنة، وأنه لم يجرِ في بناء الكنيسة إلاَ بعض الإصلاحات الجزئية، وذلك لأسباب كثيرة أهمها أنه لا توجد كنيسة يشبه مخططها مخطط الجامع الأموي، وأن شكل البناء بصورة عامة يخالف تقاليد سورية النصرانية في فن العمارة. ويرى صلاح الدين المنجد أن المستشرقين العارفين بالآثار يقرون بأن تخطيط المسجد وهندسته شيء مبتكر لا يشبه هندسة الكنائس البيزنطية، وأن كثيرًا منها يخرج عن طريقة العمارة السورية النصرانية المتوارثة؛ وعليه فإن تخطيط المسجد الأموي قد خط السمات الرئيسية لما نسميه بالهندسة المعمارية الإسلامية.

يأخذ مخطط الجامع شكل شبه مستطيل باتجاه شرق غرب، ويبلغ طول ضلعه الجنوبي ١٥٨,١٥م، وطول ضلعه الغربي ٩٦,١٢م، وطول ضلعه الشمالي ١٥٨,٩٧م، وطول ضلعه الشرقي ٩٨,٧٤م. وهو يحتل مساحة مقدارها ١٥٤٤٨م^{٢}، أو ما ينوف على هكتار ونصف، وهي تبلغ نحو عُشْر من مساحة دمشق المسورة. ويزيد طول ضلعه الشرقي الخارجي على ضلعه الغربي الخارجي مقدار ٢,٦٢م. وتظهر هذه الزيادة في صحن الجامع أكثر منها في الحرم؛ أي إن شكل الحرم أقرب إلى المستطيل، في حين يظهر شكل الصحن أقرب إلى المستطيل المنحرف، ويزيد ضلع الحرم الشرقي على ضلعه الغربي مقدار ٠,٠٧م، ويزيد ضلع الصحن الشرقي على ضلعه الغربي مقدار ٢,٠١م.

مخطط الجامع الأموي

تبين الأدلة المعمارية أن الأساس في تحديد شكل الجامع الجديد كان اعتماد الجدار الجنوبي للهيكل القديم أي الضلع الجنوبي للمستطيل جدارًا للقبلة؛ لتطابقه مع اتجاهها، ولانسجام الضلع الطويل مع امتداد صفوف المصلين. وبهذا فرض المستطيل الجنوبي مكانه كحرم للمسجد. وهكذا تحدد شكل المسجد المستطيل من خلال حرمه المستطيل، وأصبح هذا الشكل مثلًا يحتذى في أصقاع العالم الإسلامي.

أقام الوليد في منتصف الحرم في الاتجاه الشمالي الجنوبي كتلة المجاز القاطع التي تميزت باستقلاليتها المعمارية والإنشائية، وارتفاعها الواضح عن سقف الحرم، وبوجود القبة العالية في مركزها والمحراب في منتصف جدارها القبلي. وهي فكرة معمارية جديدة طبقت لأول مرة في بناء مسجد دمشق، وهدفت إلى تأكيد محور القبلة الإسلامي، وتمييزه عن المحور الغربي الشرقي المسيحي في حرم الكنيسة. فإن الرواق الأهم في حرم الكنيسة وهو الرواق الأوسط الذي يتميز بمجازه الأعرض والأعلى، يمتد موازيًا للأروقة الثانوية، في حين يتعامد الرواق الأهم في جامع دمشق مع أروقة الحرم الثانوية (الجانبية). وتأكيدًا لأهمية هذا المحور باتجاه القبلة وإبرازًا لاستمراريته عبر صحن الجامع، فقد خرق الوليد الواجهة الشمالية للصحن، وأقام فيها بابًا أحادي الفتحة ولكنه عريض ومرتفع، وأقام بجانبه مئذنته التي سميت باسمه، والتي يطلق عليها حاليًّا لقب العروس.

وتذكر المراجع أن مدة بناء الوليد للجامع دامت في الفترة (٨٦-٩٦هـ/ ٧٠٥-٧١٥م) أي نحو عشر سنوات. أما قبة المجاز القاطع، فقد بنيت خلال هذه الفترة مرتين؛ في المرة الأولى سقطت القبة بسبب خطأ في أسلوب استنادها بعد أن استقرت وتمت. وفي المرة الثانية قامت واستقرت على ما بنيت عليه.

تغطي القبة القسم الأوسط من المجاز المعترض، وتشمخ فوق سقف الجامع مشكِّلة أهم مَعلم في سماء مدينة دمشق القديمة. وقد عرفت بـ«قبة النسر»؛ حيث شبه أهل دمشق الجامع بنسر طائر كأن القبة رأسه، والغارب جؤجؤه، ونصف جدار البلاطات (الأروقة) عن اليمين والنصف الثاني عن الشمال جناحاه، كما ورد وصفه عند ابن جبير عند زيارته للجامع في عام ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م. يبلغ ارتفاع أعلى القبة عن مستوى أرض الجامع نحو ٤٤,٥٠م، ويتوج رأسها الجوسق الذي يحمل الهلال، والذي يبلغ ارتفاعه نحو ٤,٤٠م، بحيث يصبح الارتفاع الإجمالي نحو ٤٩م.

إن تقسيم جداري المجاز القاطع الطوليين إلى ثلاثة أقسام متساوية تبعه تقسيم مستطيلي للحرم على نفس النسق إلى ثلاث بلاطات أو أروقة مستعرضة موازية لجدار القبلة متساوية في العرض والارتفاع، يفصل بينها صفان من الأعمدة (بائكتان) يتألف كل منهما من أحد عشر عقدًا، فوقها مستوًى ثانٍ بحيث يحمل كل عقد فوقه عقدين صغيرين محمولين على عضادتين بينهما عمود، بحيث يشكل هذا المستوى الجزء الذي يستند إليه السقف. أما الجدار الشمالي للحرم المطل على الصحن، فتتطابق فتحات أقواسه مع فتحات الأقواس الداخلية لأروقة الحرم، وتختلف عنها بأنها تتبع نسق أعمدة رواق الصحن؛ أي عمودان بين كل دعامتين.

منبر الجامع

يقع المنبر ضمن فراغ المجاز القاطع، وعند الطرف الغربي من جداره القبلي إلى يمين المحراب الرئيسي. ويبلغ ارتفاعه الإجمالي ١٠,٥م. وهو تحفة جميلة من الرخام الأبيض المنحوت وخشب الجوز المطعم. وقد صنع في دمشق وفق نموذج ورد من العاصمة إسطنبول. وكان حريق عام ١٣١١هـ/ ١٨٩٣م قد قضى على كامل المنبر الخشبي المملوكي رائع الطراز الذي كان قبله، والذي يعود في الأغلب إلى المرحلة التي عقبت حريق عام ٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م.

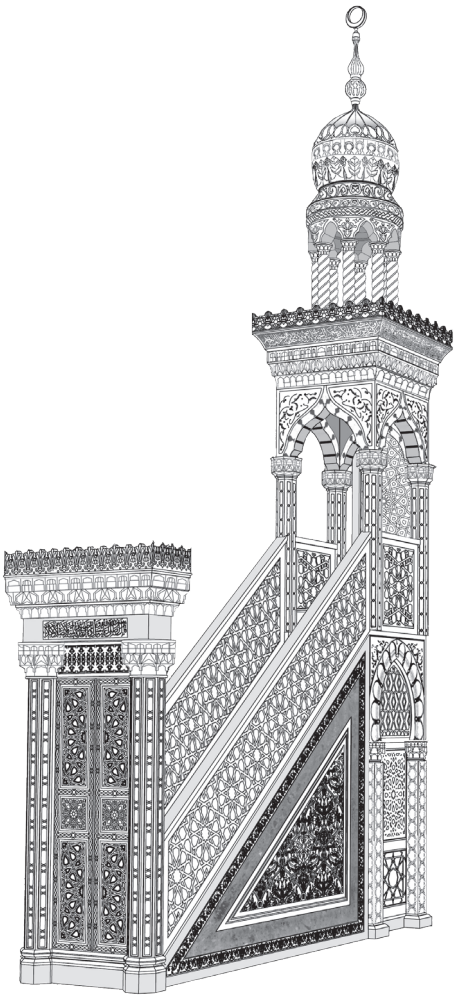

التفاصيل الزخرفية للمنبر.

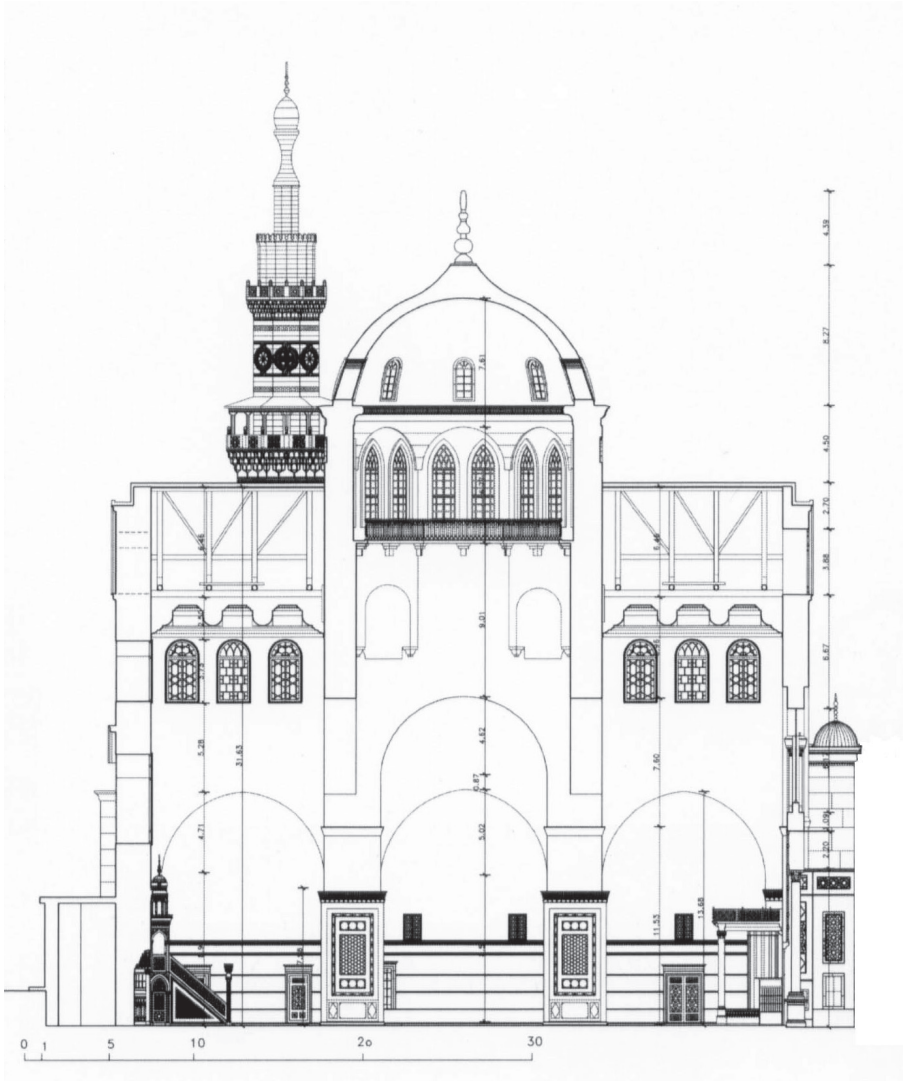

مقطع بقبة النسر التي تتوسط المجاز القاطع.

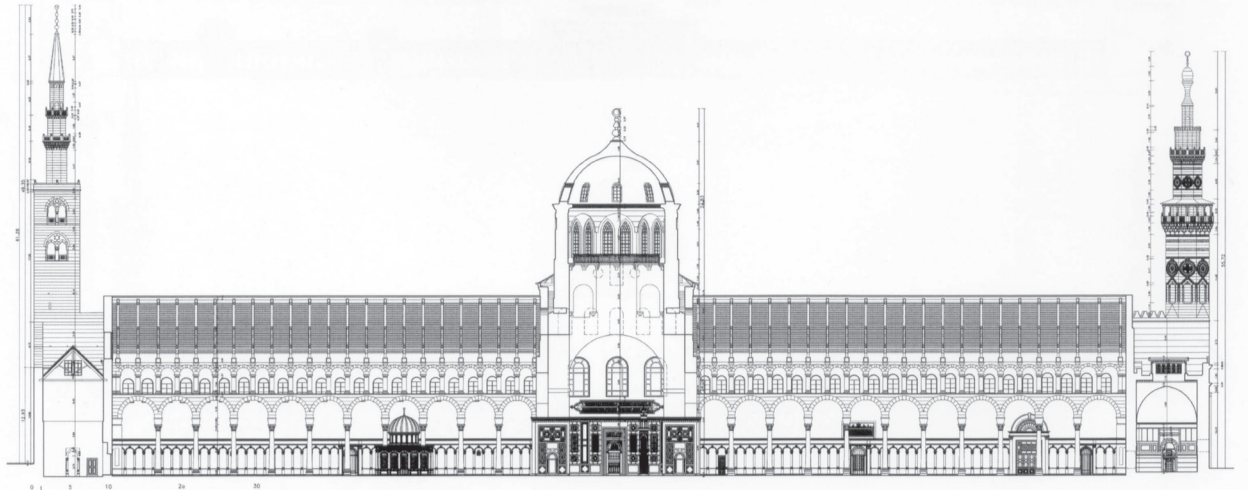

مقطع بحرم القبلة شرق – غرب يظهر تفاصيل قبة النسر التي تتوسط المجاز القاطع.

مسقط أفقي للجامع يبين أقسام الجامع كاملة وأسماءها.

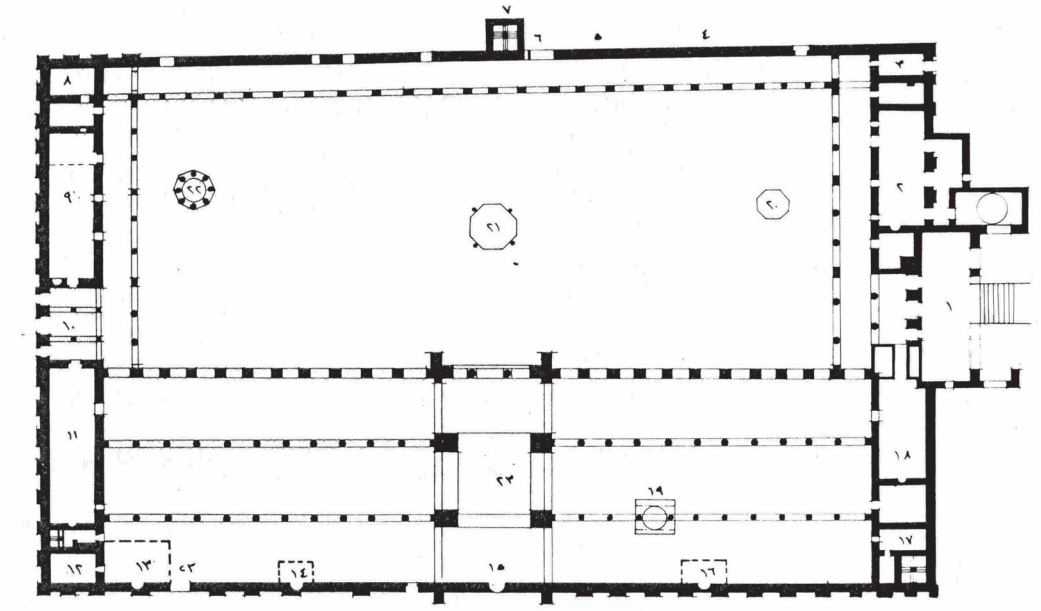

المحاريب الأربعة

يحتوي جدار الحرم القبلي للجامع على أربعة محاريب يُفَسَّر وجودها بمذاهب السنة الأربعة، حيث اختص المحراب الرئيسي الواقع عند منتصف جدار القبلة بالمذهب الشافعي، واختص المحراب الواقع غرب المنبر بالمذهب الحنفي، والمحراب الواقع غرب باب الزيادة بالمذهب الحنبلي، والمحراب الشرقي المسمى بمحراب الصحابة بالمذهب المالكي؛ ويعود شكلها الحالي إلى أعمال الترميم التي عقبت الحريق الأخير، والتي شملت أيضًا تزيينات كامل جدار القبلة. والمساحة الحالية لكامل حرم الصلاة الرئيسي هي ١٣٩م طولاً و٣٧م عرضًا؛ أما واجهة المجاز القاطع على الصحن، ففيها ثلاثة أبواب بعقود نصف دائرية، الأوسط أكبرها، يعلو كلًّا منها نافذة مغطاة بعقد نصف دائري أيضًا، ويحيط بالجميع عقد مدبب؛ وهو أول عقد مدبب في العمارة الإسلامية.

صحن الجامع والأروقة الثلاثة

وصحن الجامع مبلط بالحجر، ويحتوي على ثلاث قباب، الأولى غربية، وتقع عند الطرف الشمالي الغربي من الصحن، وتقوم على ثمانية أعمدة كورنثية، وتعرف بقبة الخزنة وقبة المال وقبة عائش. والثانية شرقية، وتقع مناظرة للقبة الغربية عند الطرف الشمالي الشرقي، وتعرف بقبة الساعات وقبة يزيد وقبة زين العابدين. والثالثة وسطى في مركز الصحن، تعلو فسقية الماء أو الميضأة، إضافة إلى عمودين يحملان رأسين نحاسيين كانا يستعملان للإضاءة.

بُنيت أروقة الصحن في جهاته الثلاث الشرقية والشمالية والغربية، وعلى بعد من الجدار يعادل المسافة بين عمودين من صفوف أعمدة الحرم. وشكلت دعامات وأعمدة الرواق في جهاته الثلاث نسقًا واحدًا يتناوب فيه توزيع الأعمدة والدعامات، فيوضع عمودان بين كل دعامتين. ويعلو صفوف الأقواس فتحات مقوسة تشبه في حجمها وعلوها نظيرتها في الحرم، في حين تميزت أقواس الأروقة الموجودة عند دهليزي الدخول بوجود قوس وسطى عريضة وقوسين جانبيتين ضيقتين.

يعد الرواق الغربي للجامع الرواق الوحيد الأصلي المتبقي اليوم، في حين تغير الوضع في العديد من الأروقة حتى إن الرواق الشمالي تهدم بكامله سنة ١١٧٢هـ/ ١٧٥٩م؛ إثر زلزال عنيف حيث أعيد بناؤه لاحقًا دون أعمدة.

مآذن الجامع

وللجامع اليوم ثلاث مآذن؛ الأولى عند منتصف الجدار الشمالي لصحن الجامع، وتعرف بالمئذنة الشمالية، وتسمى أيضًا بمئذنة العروس لجمالها ورونقها. وهي مشادة في الطرف الخارجي من منتصف جدار الرواق الشمالي عند الباب المعروف بباب الكلاسة حيث أقيمت على شاكلة الأبراج المربعة؛ الجزء السفلي منها أصلي، أما العلوي فهو أيوبي، جدد بعد سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م. ويتطابق جدار المئذنة الجنوبي مع جدار الرواق الشمالي، ويصبح جزءًا منه واستمرارًا له، ويبلغ ارتفاع المئذنة الإجمالي عن مستوى الأرض إلى رأس الهلال ٥٤م، كما يبلغ عدد درجاتها ١٩٥ درجة.

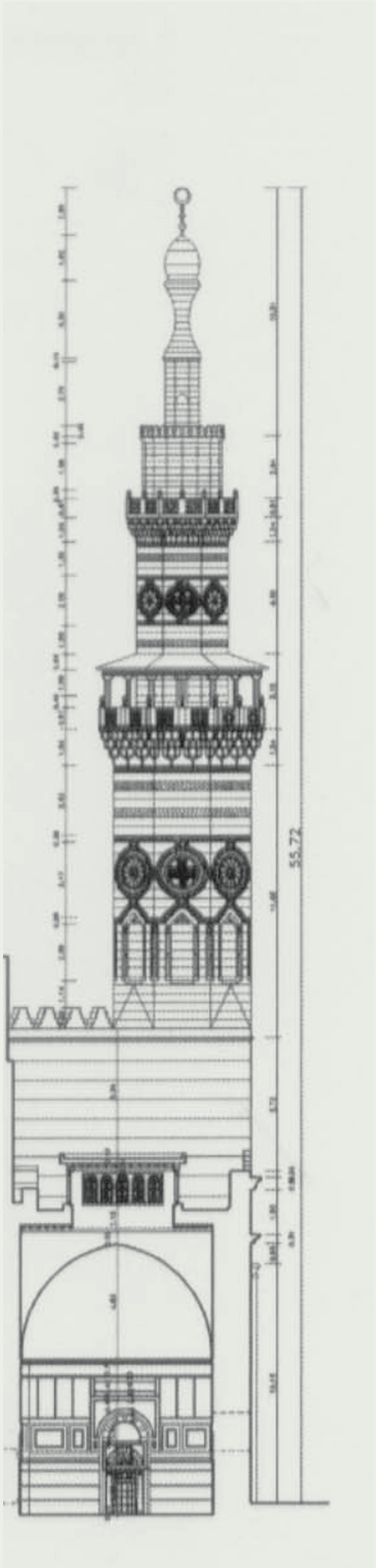

المئذنة الغربية (مئذنة قايتباي).

وتقع المئذنة الثانية عند الزاوية الجنوبية الشرقية، وتعرف بالمئذنة الشرقية، وتسمى أيضًا بمئذنة عيسى والمئذنة البيضاء. وهي مشادة عند أقصى الزاوية الجنوبية الشرقية من البرج الشرقي. وتشبه المئذنة الشمالية بانقسام جذعها إلى كتلتين مختلفتي العهد والطراز أقرب ما تكونان إلى مئذنتين منفصلتين؛ الكتلة السفلية وهي الأقدم ومسقطها قريب من المربع، ويبلغ ارتفاعها نحو ٣٨م عن مستوى أرض الجامع، ويغلب أنها مملوكية. والكتلة العلوية على طراز المآذن العثمانية مسقطها مثمن الشكل، تعلوها قلنسوة مخروطية، رممت عدة مرات آخرتها ١١٧٢هـ/ ١٧٥٩م، ويبلغ ارتفاع هذه الكتلة بما فيها القلنسوة نحو ٢٥م، وبهذا يبلغ الارتفاع الإجمالي للمئذنة نحو ٦٣م.

والمئذنة الثالثة تقع عند الزاوية الجنوبية الغربية، وتعرف بالمئذنة الغربية، وتسمى أيضًا بمئذنة المسكية نسبة إلى سوق المسكية المطلة عليه، ومئذنة قايتباي نسبة إلى السلطان المملوكي الملك الأشرف قايتباي، إذ أخذت شكلها الحالي في عهده حين رممها سنة ٨٩٣هـ/ ١٤٨٨م على طراز المآذن المصرية إثر حريق أصابها. وهي مقامة عند الزاوية الشمالية الغربية للبرج الغربي وفوق الدرج المؤدي إلى طوابق البرج، ويبلغ ارتفاعها من أرضية الجامع إلى رأس الهلال ٥٦,١٢م.

أبواب الجامع

يحتوي الجامع على أربعة أبواب رئيسية موزعة على جهاته الأربع. الباب الأول هو «باب البريد»، ويقع في الواجهة الغربية أي عند نهاية سوق الحميدية المعروف. وهو مؤلف من ثلاثة أبواب، هي: باب أوسط كبير فتحته على شكل مستطيل قائم، ساكفه قطعة حجرية واحدة، عرضه ٣,٣٨م وارتفاعه ٤,٧٣م، ويعلوه عقد على شكل حدوة الفرس. وهو موجود بين الدعامتين الجداريتين الوسطيين اللتين تعودان إلى العصر الكلاسيكي. وبابان صغيران طرفيان، عرض فتحة كل منهما ١,٣٨م وارتفاعها ٢,٨٦م. وقد فُتحا في زمن لاحق عند القسم السفلي من الدعامتين الواقعتين إلى جانبي الباب الأوسط. وقد غطيت الواجهة الخارجية للباب بالرخام الأبيض، كما نصبت مظلة خشبية فوق الباب الأوسط. وتعود المظلة والتغطية الرخامية إلى أعمال الترميمات التي عقبت حريق عام ١٣١١هـ/ ١٨٩٣م. ويحتوي كل باب من أبواب باب البريد على مصراعين يفتحان نحو الداخل. وتعود أصولها إلى العصر المملوكي. وهي مصنوعة من خشب الجوز المصفح من الخارج بالنحاس المطروق. ويعد تصفيح الباب الأوسط لجهة صنعته وأسلوبه، الأقدم بين الموجود.

الباب الثاني هو «باب النوفرة»، ويقع في الواجهة الشرقية، وسمي نسبة إلى البحرة الفوارة التي كانت موجودة أسفل

منظر علوي لكامل الجامع الأموي بدمشق.

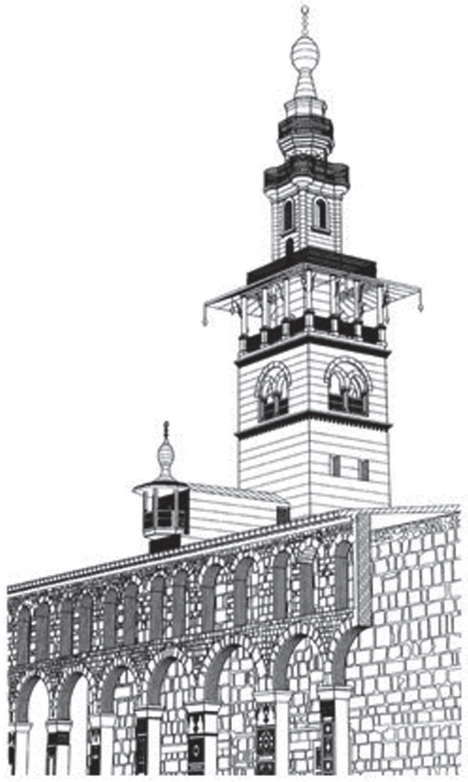

المئذنة الغربية (مئذنة قايتباي).

المئذنة الشرقية (مئذنة عيسى).

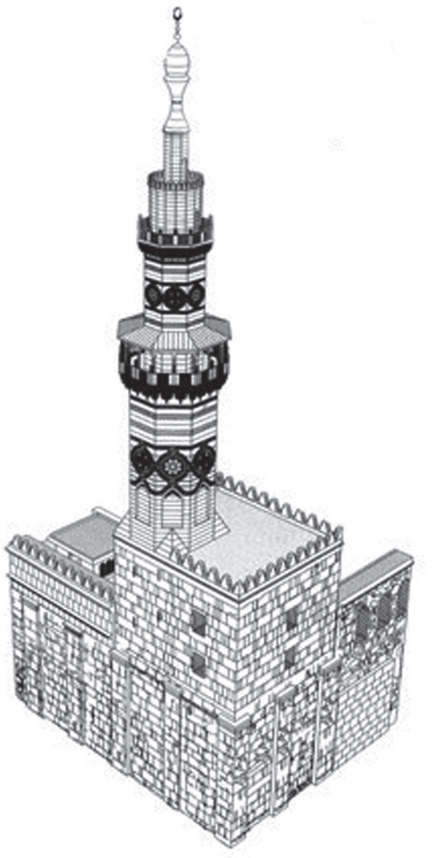

المئذنة الشمالية (مئذنة العروس).

مئذنة قايتباي.

مئذنة عيسى.

مئذنة العروس.

الدرج الذي يتقدم كتلة المدخل، والتي لا يزال موقعها ظاهرًا؛ كما سمي أيضًا بـ«باب جيرون»، وهو أهم أبواب الجامع وأكبرها وأجملها، ويتألف مثل باب البريد من ثلاثة أبواب، هي: باب أوسط كبير فتحته على شكل مستطيل قائم ارتفاعه ٧,٥م وعرضه ٤,٥م، يعلوه عقد كبير على شكل حدوة فرس. وبابان صغيران إلى جانبيه، عرض كل منهما ١,٨م وارتفاعه ٣,١٣م. ويعلو هذين البابين فتحتان مصممتان في الجدار على شكل مستطيلين قائمين، وتعود فتحات الباب كلها إلى أيام إنشاء المعبد الكلاسيكي.

أما الباب الثالث، فهو «باب العمارة»، ويقع في الواجهة الشمالية، وسمي وعُرف أيضًا بأسماء أخرى «باب الكلاسة»، و«باب السميساطية»، و«باب الناطفيين». وقد حصل على اسمه الأول نسبة إلى حي العمارة الواقع بالقرب منه، وسمي باب الكلاسة لوجود ورشات الكلس الذي استعمل في ترميم الجامع عنده، وباب السميساطية نسبة إلى المدرسة السميساطية الملاصقة للجامع، وباب الناطفيين نسبة إلى دكاكين بيع الناطف الدمشقي (من مكونات الحلويات السورية) المشهور الذي كانت موجودة عنده. ويقع الباب عند كتف الجدار الشرقي لمئذنة العروس، ويتألف من فتحة واحدة على شكل مستطيل قائم ارتفاعه ٦,٦٥م وعرضه ٣,١٥م. وللباب مصراعان كبيران من الخشب المغلف عند أحد سطحيه بالنحاس المطروق، ويوجد على السطح المعدني لكل مصراع ثلاثة مستطيلات قائمة مزينة بالكتابات والنقوش.

أما الباب الرابع، فيسمى «باب الزيادة»، ويقع في الواجهة الجنوبية، وعرف أيضًا بـ«باب القوافين» و«باب الساعات» نسبة إلى الساعة المائية التي كانت عنده. وله فتحة واحدة على شكل مستطيل قائم عرضه ٣,٢م وارتفاعه ٤,٦م، ويعلوه عقد على شكل نصف دائرة. وللباب مصراعان من الخشب المصمت، يفتحان نحو الخارج على مصطبة تنخفض عن مستوى الطريق بنحو ٥٠ سم. وتعلو الباب مظلة خشبية تمتد فوق المصطبة، وتعلو فتحة الباب آية قرآنية مكتوبة بخط هندسي حديث. ويعود الباب الحالي إلى ما بعد الحريق الكبير عام ١٣١١هـ/ ١٨٩٣م، وقبل ذلك كان مصفحًا بالبرونز وعليه نقوش وكتابات.

لوحة زيتية للباب الغربي للجامع الأموي بدمشق « باب البريد».

الوضع الحالي للباب الغربي للجامع الأموي بدمشق «باب البريد».

صورة فوتوغرافية قديمة للباب الغربي للجامع الأموي بدمشق «باب البريد».

الوضح الحالي للباب الشمالي للجامع الأموي بدمشق «باب العمارة» .

مشاهد الجامع

يوجد في الزوايا الأربع للجامع الأموي أربعة مشاهد حملت أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة. وكل منها عبارة عن مساحة مستطيلة. وهي: «مشهد أبي بكر» بالزاوية الجنوبية الشرقية، و«مشهد عمر» بالزاوية الجنوبية الغربية، و«مشهد عثمان» بالزاوية الشمالية الغربية، و«مشهد علي» بالزاوية الشمالية الشرقية وعُرف لاحقًا بمشهد الحسين. وخلال العهود التاريخية تغيرت أسماء المشاهد وعدل في تقسيمها الداخلي، واستخدمت لأغراض شتى أهمها التدريس والصلاة وخزن الكتب. ويستخدم مشهد عمر اليوم مقرًّا لإدارة الجامع، كما حول مشهد أبي بكر ليصبح متحفًا خاصًّا بمقتنيات الجامع.

لوحة زيتية للباب الشمالي للجامع الأموي بدمشق «باب العمارة».

أسقف الجامع

يغطي حرم الصلاة الرئيسي (القبلي) سقف يتألف من ثلاثة جمالونات تمتد من الشرق إلى الغرب، تستند إلى الجدارين الشمالي والجنوبي، وفي الوسط على البائكتين الموازيتين للقبلة. ويسقف المجاز القاطع سقف جمالوني يمتد من الشمال إلى الجنوب، ويستند إلى عقود المجاز القاطع، ويقطعه في الوسط قبة النسر التي ترتفع فوق الفتحة الوسطى من المجاز القاطع، على رقبة مثمنة تستند إلى رقبة مربعة، ثم إلى أربعة عقود مدببة، محمولة على أربع دعائم حجرية ضخمة أبعادها ٣٦٩ × ٤٦٦ سم، وهي مكسوة بالمرمر والرخام الملون برسوم مختلفة.

والقبة الحالية مبنية بالحجر الرملي، وتزينها من الداخل رسوم بدهانات متعددة الألوان. وهذه القبة بنيت عام ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م إثر الحريق الذي أتى على سقف الجامع عام ١٣١١هـ/ ١٨٩٣م. وكانت القبة خشبية، وصفها ابن جبير عندما زار دمشق أواخر القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي وصفًا تفصيليًّا بعد أن أخذ قياساتها بدقة.

وسقوف الأروقة جميعها خشبي، تتألف من عروق خشبية دائرية تمتد فوقها ألواح خشبية أفقية؛ فتحمل حصيرًا وترابًا (بلة)، ثم يغلفها من الأعلى إلى الخارج ألواح رصاص، كما هو معروف بأسلوب تسقيف أغلب العمائر الأثرية في مدينة دمشق.

حرم القبلة في الجامع الأموي بدمشق. وتظهر أعمدة الحرم وسقوفه ومجازه القاطع إضافة إلى محاريب جدار القبلة.

الترميمات والتعديلات على الجامع ومحيطه بعد الفترة الأموية

لقد مر على هذا الجامع أحداث وكوارث كبيرة من حرائق وزلازل، وكان بعض هذه الحرائق مفتعلًا. ففي عام ٤٦١هـ/ ١٠٦٩م، حدث حريق ضخم نتيجة للاقتتال بسبب الخلافات على الحكم؛ أدى إلى حريق ضخم بدأ في دار الإمارة التي كانت آنذاك قصر الخضراء الذي كان يقع جنوب الجامع الأموي، فاحترق وامتد الحريق إلى الجامع الأموي، فأكلته النار، ومحت محاسنه، وذهبت بكل ما فيه، حيث لم يبقَ منه إلا الجدران الأربعة. وصارت أرضه بعد الفسيفساء التي كانت تأخذ العقول تلالًا من التراب؛ طينًا في الشتاء وغبارًا في الصيف. وجمعت فصوص الفسيفساء، فأودعت في المشاهد إلى أن أخرجها ناظر المسجد القاضي الشهرزوري، وبقي المسجد مخربًا أربع عشرة سنة حتى جددت عمارة السقف والقبة أيام ملكشاه السلجوقي على يد الوزير نظام الملك؛ أما الصحن، فبقي ترابًا وطينًا حتى بلط أيام الملك العادل الأيوبي بعد الستمائة الهجرية.

وفي سنة ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م، وقع حريق حي اللبادين المعروف اليوم بحي النوفرة، حيث انتشرت النار من هذا الحي إلى الجامع الأموي، فاحترق القسم الشرقي من الجامع الملاصق لحي النوفرة وهو من جهة باب جيرون (باب النوفرة).

وفي سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م، أصاب الجامع الأموي حريق جزئي آخر، عندما احترقت مدرسة الكلاسة، حيث امتدت النار إلى مئذنة العروس فاحترقت.

وفي سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م، احترقت سلالم المئذنة الشرقية (مئذنة عيسى)، والبيوت التي في أسفلها، وتصدعت.

وفي سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م، كان حريق جزئي آخر، إذ احترق سوق اللبادين وسوق جيرون، فامتدت النار إلى حيطان الجامع، ووصلت إلى قسم من السقف.

وفي عام ٧٤٠هـ/ ١٣٤٠م، كان الحريق الكبير في دمشق، حيث أكلت النار أسواقًا بكاملها، وكانت خسائر فادحة في الأموال، ووصلت النار إلى الجامع، فاحترقت المئذنة الشرقية، وقسم من الجانب الشرقي.

وفي عام ١٠٤٦هـ/ ١٦٣٦م، وكذلك عام ١١٣١هـ/ ١٧١٩م، حصل حريقان جزئيان لم تذكر المصادر تفصيلًا عنهما، ومن المعتقد أن حريق عام ١٠٤٦هـ أصاب الجامع في الجهة الجنوبية، في حين كانت الإصابة في حريق عام ١١٣١هـ في الجهة الغربية، وليس هناك تأكيد لذلك.

ويعتقد أن معظم المعالجات التي تمت في تلك الفترة اعتمدت الأساليب التقليدية في أعمال البناء، واستخدام المواد المتاحة محليًّا. وبشكل عام كان أسلوب الترميم والتجديد يعكس طراز العصر، سواء بالعناصر المعمارية أو الإنشائية أو تقنيات البناء.

وفي عام ١٣١١هـ/ ١٨٩٣م، عصف حريق هائل بالجامع يعد إحدى أكثر الكوارث دمارًا وضررًا على الجامع عبر تاريخه الطويل، كما تعد عملية إعادة البناء التي تمت بعده إحدى أكثر العمليات تعديلًا في هيئة الجامع وتفاصيله المعمارية. وتظهر الصور التي التقطها بعد الحريق مصورون محليون وأوروبيون أن النار أخذت بكامل السقف الجمالوني، وأغلب الأعمدة، وقضت على موجودات الحرم؛ كالمنبر، وأجزاء من المحاريب، والمقام، والسدة، والزخارف الجدارية، وقسم من مصبعات النوافذ، وربما ضعضعت قبة النسر، وصدعت جدرانها الحاملة.

الجهة الخارجية من سقف الرواق الشمالي بالجامع الأموي بدمشق.

والواقع أن هذه الحرائق قد شكلت التحدي الأكبر الذي واجه هذا الجامع، يضاف إليها تأثير بعض الزلازل المدمرة التي كان أخطرها زلزال عام ٥٩٧هـ/١٢٠٠م، إذ يروي المؤرخ سبط ابن الجوزي أنه أصاب أكثر مدن الشام بالدمار، ومات مليون من الناس، كذلك زلزال عام ١١٧٣هـ/ ١٧٥٩م، وقد وصفه الغزي في مذكراته، فقال: «تهدمت معظم بيوت دمشق، وتهدمت مآذن الأموي الثلاث، وسقطت قبة النسر بكاملها، وكذلك جميع الرواق الشمالي للصحن مع أعمدته الأموية ومعظم أنحاء الجامع».

وقد كان لهذه الكوارث بشكل عام تأثير كبير في أصالة الجامع حيث أضاعت الكثير من الخصائص المعمارية والزخرفية للجامع، ولكنه كان في كل مرة، يُرمَّم ويُعاد إلى شكله الأصلي محتفظًا بمخططه المميز، وبالعديد من عناصره المعمارية والزخرفية.

زخارف الجامع

لقد فاضت المصادر بذكر زخارف الجامع الأموي بدمشق، وإبداء الإعجاب بتنوع أشكالها وموادها، ودقة صنعتها، وروعة موضوعاتها، ودلالاتها، وضخامة مساحاتها. فقد كسيت جدران الجامع بالرخام حتى ارتفاع أربعة أمتار، في حين كان يغطي باقي الجدران للأعلى في الأروقة والحرم وكذلك العقود وكوشاتها وباطنها حتى السقف فسيفساء زجاجية ملونة الفصوص مفضضة ومذهبة. وقد يتخلل الفصوص الزجاجية فصوص من الرخام أو الحجر أو الصدف. كذلك استخدم الرخام بالنوافذ، وكذلك الجص المعشق بالزجاج الملون. وكانت الأسقف خشبية مصفحة بالرصاص، والأبواب خشبية مصفحة بالنّحاس المزيّن بالرّسوم والكتابات. وقد وصف الشاعر الأموي نابغة بني شيبان هذه الزخارف في أبيات في قصيدته التي مدح فيها الخليفة الوليد أثناء افتتاح الجامع الأموي، حيث قال:

فيـهِ الزَبَـرْجدُ والياقوتُ مُؤْتلقٌ
والكِلْسُ والذهبُ العِقيانُ مرصوفُ
تـرى تهاويلَـهُ من نحوِ قِبْلتنـا
يلـــوحُ فيه من الألـــوانِ تفويفُ
يـكادُ يُعشي بصيـرَ القوم زِبْـرِجُهُ
حتى كأنَّ سوادَ العينِ مطروفُ
وفِضّةٌ تُعجِبُ الرائيـن بَـهْجتُها
كـرِيمُها فـوق أعلاهنَّ معطـوفُ
وقُبـة لا تكـادُ الطيـرُ تـبلُغُها
أعْلى محارِيبِها بالسّاجِ مَسْقوفُ
لها مصابيحُ فيها الزيتُ من ذَهَبٍ
يُضيءُ من نورِها لُبنانُ والسِّيفُ
فكـــلُّ إقبـالهِ – واللهُ زيـَّنهُ –
مبطنٌ بـرخام الشـام محفـوفُ
في سُرَّةِ الأرضِ مشدودٌ جوانبُهُ
وقد أحاط بـه الأنهـارُ والريـفُ
فيـهِ المثانـي وآيـاتٌ مفصَّلةٌ
فيهـن من رَبِّنـا وعدٌ وتخويـفُ

واليوم بالرغم من كل ما شهده الجامع من كوارث، فما زال يحافظ على أجزاء غير قليلة من تلك الزخارف والتكسيات، التي تعد كافية لإبراز عظمة الجامع وخصوصية زخارفه وروعتها. تتركز زخارف الحرم اليوم في جدار القبلة، وبشكل خاص في القسم الأوسط منه الموجود ضمن المجاز القاطع، وكذلك عند سطوح الدعامات الحاملة للقبة. ويشكل جدار المجاز مع المنبر والمحراب لوحة جميلة غنية باللوحات الرخامية متعددة الألوان والموزعة بأشكال هندسية متناظرة، تعلوها الآيات الأولى من سورة الرحمن منحوتة بخط عثماني جميل، وتغطي سطوح جدران الدعامات الحاملة للقبة زخارف مشابهة لزخارف الجدار الجنوبي، وعلى نفس ارتفاعها.

أما زخارف سطوح طرفي جدار القبلة الشرقي والغربي، فهي أقل غنًى من زخارف جدار المجاز القاطع وأقل ارتفاعًا منها. وتتمثل بعقد دائري يحمله عمودان جداريان على شكل محراب مسطح يتكرر على امتداد الجدار. هذا، ويوجد في الطرف الشرقي من الجدار عند المحراب المسطح الثاني عشر إلى يسار محراب الصحابة، لوحة جدارية تحدد مقام النبي هود عليه السلام، والذي تنسب بعض المراجع بناء الجدران الخارجية لمسجد دمشق الكبير إليه. كما يوجد عند المحراب الثالث عشر إلى يمين محراب الصحابة لوحة أخرى تحدد مقام الخضر عليه السلام، وهو المكان الذي تذكر بعض المراجع أنه كان يصلي فيه كل ليلة.

وتعود زخارف الحرم الحالية إلى مرحلة الترميمات التي عقبت الحريق الأخير عام ١٣١١هـ/ ١٨٩٣م. وهي تختلف كليًّا في مادتها وشكلها عن الزخارف التي كانت موجودة قبل الحريق. هذا، ولا تزال بعض أجزاء من الزخارف القديمة التي نجت من كوارث الزمن توجد على السطح الجنوبي لجدار الجزء الشمالي من المجاز القاطع، وعلى سطحي دعامتي القبة الشماليتين المقابلتين له، وفيها بقايا لشريط الكرمة المحيطي، ولوحة فسيفسائية جميلة على شكل محراب منقوش في أسفله جملة «خير الخلق بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم أجمعين».

وتغطي أرض الحرم بلاطات حجرية مستطيلة الشكل مرصوفة بشكل طولي على هيئة مداميك متوازية. وهي تعود إلى مرحلة

المجاز القاطع في الجامع الأموي بعد حريق عام ١٨٩٣م.

الترميم التي عقبت الحريق الأخير في عام ١٣١١هـ/ ١٨٩٣م، وتغطي البلاط سجاجيد مختلفة الحجم واللون والنوع. وقد غُيِّر البلاط مرات عديدة بسبب الحرائق والزلازل التي أصابت الجامع خلال تاريخه الطويل. ويذكر أغلب المؤرخين أن تبليط الحرم كان بالرخام الأبيض إلا أن ابن كثير في أواخر القرن الثامن الهجري يذكر عند وصفه لنتائج أول حريق حدث للجامع عام ٤٦١هـ/ ١٠٦٩م، أن الفسيفساء التي كانت في أرضه وعلى جدرانه تقلعت، وأن أرضه كانت كلها بالفصوص وليس فيها بلاط، ثم لما وقع الحريق استبدل بالفسيفساء البلاط. وهذا يعني إذا صح قول ابن كثير أن أرض الحرم كانت مغطاة بفصوص الفسيفساء وقت بناء الجامع، فإن أبا شامة وهو أقدم من ابن كثير ومرجع له لا يشير إلى وجود الفسيفساء على أرض الحرم؛ وإنما ذكر أنه في سنة ٦٠٢هـ/ ١٢٠٥م «هدموا قنطرة الباب الشرقي الرومية لتنشر حجارتها بلاطًا لصحن الجامع»، ثم يقول: «وفي سنة ٦١١هـ، شرع في تبليط رواقات الجامع الداخلية (يقصد الحرم)، وكانت أرض الجامع قد تكسر رخامها».

الزخارف الفسيفسائية

فسيفساء الجامع الأموي غنية بمواضيعها وألوانها وموادها وتقنياتها. وقد استخدمت لتغطية مساحات كبيرة من سطوح جدران الحرم والصحن. وكان الجامع الأموي هو أول جامع في الإسلام بعد مسجد قبة الصخرة دخلته الفسيفساء بهذه الكمية والنوعية. وربما كانت الزينة الفسيفسائية هي الصفة الأهم التي اتصف بها الجامع، وخاصة في مراحل تاريخه الأولى.

ويجمع المؤرخون على أن القسم العلوي من جدران الحرم وقبته وأروقة الصحن وقناطره كانت مكسوة بالفسيفساء. وأن (حيطانه إلى قامتين بالرخام المجزع ثم إلى السقف بالفسيفساء الملونة والمذهبة، في صور أشجار وأمصار، وكتابات على غاية الحسن والدقة ولطافة الصنعة. وقلّ شجرة أو بلد مشهور إلا وقد مثل على تلك الحيطان)، وأن (الرخام كان في جدران الجامع سبع وزرات، ومن فوقه صفات البلدان والقرى وما فيها من العجائب، وأن الكعبة المشرفة وضعت صفاتها فوق المحراب، ثم فرقت البلاد يمينًا وشمالاً وما بينهما من الأشجار المثمرة والمزهرة وغير ذلك).

جزء من زخارف الفسيفساء الأصلية في الجامع الأموي.

جزء من اللوحة الفسيفسائية المشهورة في الرواق الغربي للجامع الأموي «لوحة دمشق».

تتنوع موضوعات وتشكيلات اللوحات الفسيفسائية وتمثلها المباني المتنوعة الموجودة في لوحات الجدار الداخلي للرواق الغربي (لوحة أو مصورة دمشق)، وواجهة مدخل الحرم (الجبهة المثلثية)، وبعض لوحات سطوح أضلاع قبة بيت المال.

ونلاحظ غلبة وجود العناصر النباتية في مختلف اللوحات الفسيفسائية في الجامع. وقد ظهرت على أشكال وأنواع مختلفة منها أشجار مثمرة كالتفاح، والإجَّاص، والنارنج، وأشجار النخيل والسرو والحور، بالإضافة إلى نباتات مختلفة، وأوراق متنوعة الأشكال والألوان.

أما الموضوعات الزخرفية والرمزية، فقد مثلتها الزخارف الهندسية المستخدمة كإطار يحيط باللوحات الفسيفسائية في مختلف اللوحات.

وتظهر موضوعات التصاوير المائية واضحة في لوحة دمشق، حيث نرى النهر الممتد على طول وأسفل اللوحة، بالإضافة إلى بعض البحرات والنوافير.

وبقي الجامع لمدة أربعة قرون محافظًا على فسيفسائه يفخر بها ويتيه بجمال زخارفها، حتى أدركه حريق عام ٤٦١هـ/ ١٠٦٩م، فسقطت سقوفه، وتناثرت فصوصه، وتغيرت معالمه؛ ثم تبع الحريق في عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م زلزال قوي سقط على إثره الكثير من فصوص فسيفساء الجامع، وخربت مساحات كبيرة من زخارفها. وتوالت على الجامع الكوارث، فأتت على البقية الباقية من زخارفه، ولم ينجُ منها إلا عدد قليل من السطوح الموزعة هنا وهناك على جدران الجامع، شاهدةً على ما كان عليه الجامع من الروعة والفخامة والبهاء.

وكانت فصوص الفسيفساء المنهارة تجمع في صناديق، وتحفظ في مستودعات الجامع؛ على أمل إعادتها إلى مكانها. وقد استعمل بعضها في تجديد عمارة القبة والسقف عام ٤٧٥هـ/١٠٨٢م، أيام ملك شاه بن محمد وأخيه تتش السلجوقيين. وتبع ذلك محاولات محدودة لإعادة ترميم الفسيفساء، كان أهمها التي تمت في عهد الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي عام ٥٤١-٥٦٩هـ/ ١١٤٦-١١٧٤م؛ ثم في عهد الملك الظاهر بيبرس عام ٦٦٨هـ/ ١٢٦٨م. إلا أن الضرر الذي أصاب الفسيفساء مع الزمن كان أكبر من إمكان إعادته وإصلاحه. وبقيت محاولات الإصلاح محدودة ومحصورة في بقع صغيرة من الجدران، والتي لم ترقَ إلى مثل جمال الفسيفساء الأموية التي امتازت عنها بدقة الصنع، وفن الرصف، وترتيب الألوان وانسجامها، فضلًا عن أن هذه المحاولات لم تُعِد الرسوم الأموية؛ وإنما استبدلت بها رسومًا مختلفة.

وقد اهتم بعض الحكام الذين توالوا على دمشق بإصلاح عمارة الجامع نفسه أكثر من إصلاح الفسيفساء وترميمها، وعمد بعضهم عوضًا عن ذلك إلى تغطية ما تبقى من سطوحها بالجص، وربما أرادوا بذلك حمايتها والحفاظ على فصوصها من السقوط، أو أنهم اعتبروا المبالغة في زينة الجامع أمرًا مكروهًا فعمدوا إلى تغطيتها؛ وسواء كان السبب هذا أو ذاك، فإن التغطية الجصية حققت فائدة عظيمة لصالح الحفاظ على هذه اللوحات الفسيفسائية عبر قرون عديدة، ومنع فصوصها من السقوط. وفي أواخر القرن التاسع عشر، جرى ترميم محدود لبقع صغيرة من الفسيفساء عند جدران الدهليز الغربي؛ وذلك بمناسبة زيارة قيصر ألمانيا ويليام الثاني للجامع عام ١٨٩٨م.

وفي عام ١٩٢٧م، زارت الباحثة السويسرية مارغريت فان برشم الجامع، ورصدت ستة مواقع لبقايا فسيفساء موزعة على جدرانه لم تكن مغطاة بطبقة الجص، منها خمسة مواقع في صحن الجامع وموقع واحد داخل الحرم. وبعد ذلك بعام أزيلت الطبقة الجصية التي كانت تغطي فسيفساء جدار الرواق الغربي للجامع بإشراف الفرنسي دي لوري، فظهرت معالم لوحة جدارية رائعة الجمال فريدة في ألوانها ومواضعها وتكويناتها، هي بحق تحفة رائعة

من روائع الفن العالمي على امتداد العصور. وتعود هذه اللوحة بالتأكيد إلى مرحلة الوليد، وتعطي فكرة عما كان عليه الجامع من فخامة وبهاء. وقد ظهر في بعض أقسامها مساحات سقطت منها الفسيفساء، كما ظهرت على أقسام أخرى ملامح ترميم تعود في الغالب إلى عصري نور الدين محمود بن زنكي والملك الظاهر بيبرس. وبقيت اللوحة على حالها حتى عام ١٩٦٤م، حيث بدأت عملية ترميم شاملة لها، كما هو مدون عند الزاوية الجنوبية السفلى من اللوحة.

وما زال الجامع الأموي يقف اليوم محتفظًا بكامل بهائه وعظمته، خاصة بعد انتهاء أعمال الترميم الأخيرة فيه، والتي تمت بين عامي ١٩٩٢م و١٩٩٧م، وامتدت لكل أجزاء الجامع وعناصره المعمارية والزخرفية؛ مما أعاد لها رونقها الأصيل وعبَّر بصدق عن تلك العناية التاريخية بهذا الجامع الذي صار رمزًا للسوريين وللعرب المسلمين كافة.

وأخيرًا، فقد أدى الجامع الأموي دورًا كبيرًا في التاريخ الإسلامي لمدينة دمشق؛ فكان مسجدها الجامع وأهم أماكن اجتماع أهلها، وكانت مراسيم تقليد الولاة والقضاة تُقرأ فيه، وتعلن فيه المراسيم الجديدة؛ بل كتبت المهمة منها على جدرانه. وفيه كان يستقبل الشهر الكريم ويحتفل به، وبالأعياد الدينية والرسمية، وكان في العصر الحديث مقرًّا للاجتماعات السياسية وإلقاء الخطب، والإعداد للمظاهرات المنددة بالاستعمار الفرنسي، والمطالبة والمعبرة عن مطالب الشعب وحقوقه.

واشتهر الجامع الأموي بخزائنه التي تحتوي على نفائس المخطوطات والمصاحف وكتب التاريخ، كما كان يوجد عند أبواب الجامع أماكن مخصصة للوراقين، وعاقدي الأنكحة والشهود. كذلك اشتهر بكثرة قناديله ومشكاواته التي كانت تعلق بسلاسل بلغ عددها ستمائة سلسلة. وكان على كل باب من الأبواب الأربعة للجامع في العهد المملوكي سراج كبير من نحاس. وقد اشتهر الجامع أيضًا بما يملكه من الساعات الشمسية، والساعات الفلكية، والميكانيكية التي تنوعت بحسب العصور. فهذا المتحف الوطني بدمشق يحتفظ بساعة شمسية مصنوعة من الرخام، صنعها المؤقت المشهور ابن الشاطر الدمشقي في عام ٧٧٣هـ/ ١٣٧١م.

وكان يتولى شئون الجامع ناظر المسجد، الذي كانت وظيفته تعد من الوظائف الكبيرة، يعاونه عدد من المؤذنين والموقتين والقيمين؛ وقد ذكر ابن كثير أنّ عدد المؤذنين كان في عام ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م أيضًا ثلاثين مؤذنًا. وكان من مسئوليات الناظر الإشراف على أوقاف الجامع الكثيرة من أراضٍ وقرًى وخانات وأسواق وحمامات، أثبتتها السجلات وكتب الوقف؛ إضافة إلى نصوص منقوشة على بعض أعمدة الجامع وحجارته.

مرسوم السلطان الظاهر جقمق المنقوش على السطح الجنوبي للعمود الشمالي الغربي
داخل دهليز «باب البريد» بالجامع الأموي بدمشق عام ٨٤٤هـ.

من إصدارات مكتبة الإسكندرية

أبحاث المؤتمر الدولي

الحضارة الإسلامية في الأندلس